عنوان الورقة :

الأوقاف وأثرها فى دعم الأعمال الخيرية فى ا لمجتمع

مقدمها :

الأستاذ / عبد الله بن ناصر بن عبد الله السدحان

ملخص البحث

في هذه الدراسة توضيح الدور الوقفي بناء الحياة الاجتماعية وتماسكها من خلال مداخل متعددة ، مثل المدخل الوقائي والمدخل العلاجي ، والمدخل التنموي كما حاولت الدراسة توضيح الدور الذي أداه الوقف في حياة المجتمعات الإسلامية على مر العصور السابقة ، وإبراز سمات التكاتف والتعاضد التي تفرد المجتمع المسلم من خلال المؤسسات الاجتماعية التي كان للوقف أثر بالغ ودور كبير في قيامها واستمرارها لعقود طويلة ، وهذه المجالات الوقفية كان لها أثر واضح في الحياة الاجتماعية ، وأدت دورها باقتدار في تشكيل بنية المجتمع المسلم على مر العصور ؟

كما أدى الوقف عبر مجالاته المختلفة إلى عدد من الآثار الاجتماعية فلا يكاد يوجد جانب من جوانب الحياة في المجتمع المسلم إلا ولها وصلة بنظام الأوقاف من قريب أو بعيد ، فلقد أدى نظام الوقف وباقتدار إلى تعزيز روح الانتماء المجتمعي بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد ، إضافة إلى بسط التضامن الاجتماعي وشيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عادة في المجتمعات التي تسود عليها روح الأنانية المادية وينتج عنها الصراعات الطبقية بين المستويات الاجتماعية المختلفة .

كما ساعد الوقف على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع ذلك بتحقيق نوع من المساواة بين أفراده، من خلال تمكن الفقير من الحصول على حقه من التعليم والعلاج والمتطلبات الأساسية في الحياة من خلال نظام الوقف إضافة إلى تعزيز الجانب الأخلاقي والسلوكي في المجتمع ، من خلال التضييق على منابع الانحراف ، كما أدى نظام الوقف إلى تحقيق الانفتاح المجتمعي بين أجزاء العالم الإسلامي الكبير ، والترابط بين الحاضرة والبادية وتحقيق ما يسمى في علم الاجتماع بالحراك الإيكولوجي والحراك الاجتماعي في بنية المجتمع .

وأخيراً خلصت الدراسة إلى عدد من التوصيات ومنها : تنفيذ حملة إرشاد وتوعية تهدف إلى إبراز قيمة الصدقات وأجر الإنفاق في سبيل الله ، وبخاصة ما كان منها صدقة جارية (

الوقف) للإقبال على إحياء هذا النظام وجعله يؤدي دوره الحقيقي واستمرار عقد الندوات العلمية المتخصصة في الأوقاف وطرحها بشكل موسع ، بحيث تكون المشاركات من دول العالم الإسلامي وعدم قصرها على المستوى المحلي ، وضرورة إبراز دور الوقف الاجتماعي في النهضة الإسلامية وطرحها عبر القنوات الإعلامية مع التركيز على ضرورة التنوع في مصارف الأوقاف وفق حاجات المجتمع التي تسد الثغرات الاجتماعية إضافة إلى أهمية طباعة أبحاث الندوات التي أقيمت عن الوقف في كتب وطرحها في السواق للبيع وأخيراً يقترح الباحث النظر في تحويل جميع عمليات الوقف من مبادرات فردية إلى عمر مؤسسي منظم من خلال إنشاء صناديق وقفية متخصصة يندرج ضمنها الأوقاف القائمة حالياً ، وما يستجد من أوقاف بالأنشطة الشرعية ، والثقافية والصحية ، بالإضافة إلى الأنشطة الاجتماعية من خلال إنفاق ريع الأموال الوقفية بما يحقق أغراض الواقفين وتتكون موارد كل صندوق من ريع الأموال الوقفية بها ويقوم على إدارة كل صندوق لجنة متخصصة ، وتساعد مثل هذه الصناديق على توفير رأس مال كبير من مجموع الأوقاف المتناثرة ، مما يعطي فرصة أكبر لتنمية رؤوس الأموال ، وإنشاء مشاريع تحقق تنمية واسعة ، والله الموفق.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

لقد فتح الإسلام منابع عديدة لنفع الآخرين ، فمنها ما هو واجب كالزكاة والكفارات والنذور .وهذه لا حديث عنها باعتبارها واجباً لازماً على المسلم ومن المنابع ما هو ذو طابع تطوعي بحت مثل الصدقات التطوعية والوقف ، فالمسلم حين يتنازل عن حر ماله طواعية فهو يتمثل الراحة المهداة في الإسلام للبشر أجمع ويتحرر به من ضيق الفردية والأنانية متجاوزاً الأنا إلى الكل شاملاً المجتمع بخيرية الفرد وبانيا الجسد الواحد بكرم العضو ،وهذا التفاعل تحقيقاً لحديث رسول الله : (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر جسده بالسهر والحمى) (رواه البخاري)

ويعد الوقف بمفهومه الوسع اصدق تعبيراً وأوضح صورة للصدقة التطوعية الدائمة ، بل له من الخصائص والمواصفات ما يميزه عن غيره ، وذلك بعدم محدوديته واتساع آفاق مجالاته ، والقدرة على تطوير أساليب التعامل معه ، وكل هذا كفل للمجتمع المسلم التراحم والتواد بين أفراده على مر العصور بمختلف مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الأمة الإسلامية خلال الأربعة عشر قرناً الماضية ، فنظام الوقف مصدر مهم لحيوية المجتمع وفاعليته وتجسيد حي لقيم التكافل الاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى آخر حاملة مضمناتها العميقة في إطار عملي يجسده وعي الفرد بمسؤوليته الاجتماعية ويزيد إحساسه بقضايا إخوانه المسلمين ويجعله في حركة تفاعلية مستمرة مع همومهم الجزئية والكلية .

وينظر كثير من الباحثين إلى نظام الوقف باعتباره أحد الأسس المهمة للنهضة الإسلامية الشاملة بأبعادها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية ، لذا فقد اتجهت الأنظار إليه مرة أخرى بعد تغيب دوره العظيم لعقود طويلة باعتباره البذرة الصحيحة لبداية النهضة الشاملة لجميع مجالات الحياة في الأمة المسلمة ولعل من المبشرات في ذلك أن الندوات عن الوقف أخذت ترى على امتداد العالم الإسلامي فما أن تختم ندوة إلا وتبدأ

أخرى ، ولا شك أن البداية الصحيحة لعودة الوقف إلى مكانه الفاعل في دولاب العجلة التنموية الشاملة هو إثارة الشعور واستنهاض الهمم نحو تجلية حقيقته والدور الذي قام به سابقاً .

وستحاول هذه الورقة الإشارة إلى شئ من ذلك وتوضيح الأثر الاجتماعي للوقوف والدور الذي أداه في حياة المجتمعات الإسلامية على مر العصور السابقة وإبراز سمات التكاتف والتعاضد التي تفرد المجتمع المسلم وتميزه بها عن غيره من المجتمعات ، كما تحاول هذه الورقة طرح تصور عملي لكيفية إعادة الأثر الفعال للوقف في التنمية الاجتماعية الشاملة ، والله أسأل إعانته وهو المأمول فيها والمسئول لها هو على كل شئ قدير .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أولاً : ال ف في الإسلام :

يعرف الوقف في اللغة بأنه : الحبس والمنع ، ويقال : وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها (١) ،وفي تعريف الفقهاء الوقف هو : تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة .

والأصل في مشروعية الوقف في الإسلام السنة والإجماع في الجملة ، ولقد اتفق جمهور علماء السلف على جواز الوقف وصحته بناء على أدلة ومنها حث القرآن الكريم في آيات عدة على فعل الخير والبر والإحسان وهو ما يرمى إليه الوقف ومن ذلك قوله تعالى : " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) البقرة آية : ٢٧٢ .

كما ورد في العديد من الآثار القولية والفعلية للرسول ﷺ ما يؤكد مشروعية الوقف ، ومن ذلك حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – الذي يقول فيه : " أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي ﷺ فقال ك أصبت أرضا ، لم اصب مالاً قط أنفس منه ،فكيف تأمرني به ؟ قال : " إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها) ، فتصدق عمر : أنه لا يباع أصلها ، ولا يوهب ، ولا يورث في الفقراء والقربى ، والرقاب وفي سبيل الله والضيف وابن السبيل ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقاً غير متمول فيه) (متفق عليه) .

ويدخل الوقف في قوله ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) (رواه مسلم) .

ومن الأدلة العملية فعله عليه الصلاة والسلام في أموال مخيريق وهي سبعة حوائط بالمدينة أوصى إن هو قتل يوم أحد فهي لمحمد ﷺ يضعها حيث أراه الله تعالى ، وقد قتل يوم أحد وهو على يهوديته فقال النبي ﷺ : (مخيريق خير يهود) وقبض النبي ﷺ تلك الحوائط السبعة وجعلها أوقافا بالمدينة لله وكانت أول وقف بالمدينة (٢) .ثم وقف عمر رضي الله عنه ، وبعد ذلك تتابع الصحابة رضوان الله عليهم في الوقف حتى إن جابراً رضي الله عنه يقول : (لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف) . وهذا إجماع منهم ، فإن الذي قدر منهم على الوقف وقف واشتهر ذلك فلم ينكره أحد فكان إجماعاً (٣) .

ونظام الوقف باعتباره نظاماً خيرياً موجود منذ القدم بصورة شتى ، إلا أنه من المؤكد أن نظام الوقف في الإسلام بشكله الحالي يبقى خصوصية إسلامية لا يمكن مقارنتها بصور البر في الحضارات أو الشعوب الأخرى وهذا عائد إلى عدة أمور:

- التعلق الشعبي به وامتداد رواقه ومظلته إلى أمور تشف عن حس إنساني رفيع
- عدم اقتصار الوقف على أماكن العبادة كما هو في الأديان السابقة ، بل امتد في نفعه عموم أوجه الخير في المجتمع .
- شمول منافع الوقف حتى على غير المسلمين من أهل الذمة ، فيجوز أن يقف المسلم على الترمذي لما روي أن صفية بنت يحيى – رضي الله عنها – وقفت على أخ لها يهودي (٤) .

ويتميز الوقف بخصائص وميزات متعددة قد لا توجد في المشاريع الخيرية الأخرى ، وهذه المزايا أكسبته تلك الحيوية التي استمر أثرها في الأمة على مدى قرون طويلة ، ألأجل ذلك لا عجب أن نرى ذلك الإقبال الكبير من لدن أفراد المجتمع المسلم على الوقف وتحبيس جزء كبير من أملاكهم لأعمال الخير ، وقدوتهم في ذلك نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام ثم صحبه الكرام (فقد وقف مجموعة من أصحاب النبي ﷺ منهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعائشة بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وجابر بن عبد الله وغيرهم) (٥) ، ومن بعدهم من التابعين وتابع التابعين ومن بعدهم من المسلمين .

ثانياً : دور الوقف في الحياة الاجتماعية :

إن الدارس للوقف في الحضارة الإسلامية ليعجب من التنوع الكبير في مصارف الأوقاف ، فكان هناك تلمس حقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع لتسد هذه الحاجة عن طريق الوقف ، من خلال الأوقاف، فالوقف من حيث بعده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحم بالذي يمتلكه المسلم ويترجمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير ويبدو هذا جليا في رصد التطور النوعي للوقف على امتداد القرون الأربعة عشر فلقد كان المسجد أهم الأوقاف التي عني بها المسلمون ،بلهو أول وقف في الإسلام ، كما هو معلوم في قصة بناء مسجد قباء أول مقدم رسول الله ﷺ على المدينة المنورة ، ولعل من أبرز شواهد اهتمام المسلمين بذلك الجانب في الوقف : الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، والمسجد الأموي بدمشق والقرويين بالمغرب ، والزيتونة بتونس وغيرها كثير ، ثم يأتي في المرتبة الثانية من حيث الكثرة العددية والأهمية النوعية المدارس ، فلقد بلغت الآلاف على امتداد العالم الإسلامي وكان لها أثر واضح فينشر اللم بين المسلمين وقد أدي توافد طلاب العلم من جميع أنحاء العالم إلى مراكز الحضارة الإسلامية والعواصم الإسلامية إلى إنشاء الخانات الوقفية التي تؤويهم ، إلى جانب تهيئة الطرق ، وإقامة السقايات والسبلة في هذه الطرق للمسافرين ، وكذا دوابهم .

وصاحب ذلك إنشاء الأربطة ودور العلم للطلاب الغرباء لإيوائهم،واستتبع ذلك ظهور الوقف للصرف على هؤلاء الطلاب باعتبارهم من طلاب العلم المستحقين للمساعدة في دار الغربة ،ولا تخلو كل هذه المراحل والأنواع من جوانب اجتماعية للوقف لها دلالتها وأهميتها وأثرها في المجتمع بشكل عام .

إلا أن الدور الفاعل للوقف في مجال الرعاية الاجتماعية يتمثل في المدارس والمحاضر التي أنشئت خصيصاً للأيتام يوفر لهم فيها المأكل والأدوات المدرسية كما يتمثل دور الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية في الأربطة والزوايا ، والتكايا بالإضافة إلى الأسبلة التي يقصد بها توفير ماء الشرب للمسافرين وعابري السبيل وجموع الناس سواء داخل المدن أو خارجها ويمكن أن نعد كل ذلك مؤسسات اجتماعية أدت دورها الاجتماعي باقتدار رغم صعوبة

استمرار مثل هذه المؤسسات الاجتماعية وبقائها فترات طويلة وعلى مدى أجيال متوالية ، ويعود ذلك إلى حاجتها الكبيرة إلى موارد مالية دائمة لا تتوقف ولا تنضب وقد تحقق لها ذلك بفضل من الله ثم بفضل نظام الوقف الذي ازدهر في تصاعد مع ازدهار الحضارة الإسلامية ذلك أن الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ وفي العديد من بلاد العالم توقفت مؤسسات خيرية ضخمة عن أداء رسالتها بعد فترة من الزمن ، بسبب نضوب مواردها المالية وإفلاسها مما يضطرها إلى طلب مساعدة الخيرين بين حين وآخر ، أما في الحضارة العربية الإسلامية فإنه قل أن تجد مثيلاً لهذه الظاهرة .

ويمكن أن نجعل المجالات الرئيسية لعمل الأوقاف في الجوانب الاجتماعية في المجالات الآتية :

أ) مجال رعاية الأيتام :

نجد الحرص الكبير من المسلمين على رعاية الأيتام وتربيتهم من خلال الأوقاف بحثاً عن الأجر والمثوبة وطلباً لمرافقة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام في الجنة ، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما شيئاً (رواه البخاري).

ومن أشهر الأوقاف لرعاية الأيتام إنشاء مكاتب لتعليمهم ورعايتهم ، ومن ذلك ما نقل في مآثر صلاح الدين الأيوبي أنه أمر بعمارة مكاتب ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ويجري عليهم الجراية الكافية لهم (٦) ويقصد بالجراية الكاملة مأكلهم وكسوتهم وأدوات دراستهم ومن صورة رعاية الأيتام مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان الظاهر بيبرس بجوار مدرسته وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم، بالإضافة إلى الكسوة في الشتاء والصيف ، كذلك أنشأ السلطان قلاون مكتباً لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل كسوة في الشتاء وأخرى في الصيف (٧) . ولقد استرعت ظاهرة كثرة المدارس التي تعنى بالأيتام الرحالة ابن جبير، فقد عدها من أغرب ما يحدث به من مفاخر البلاد الشرقية من العالم الإسلامي .

ولعل تحسن الإشارة إليه أن دار الأيتام القائمة حالياً في المدينة المنورة تعد من الأوقاف التي أنشأها حجاج القارة الهندية قبل قرابة سبعين عاماً لأيتام المدينة المنورة ففي عام ١٣٥٢هـ قام الشيخ عبد الغنى دادا – يرحمه الله – بتأسيس مكان ياوى أيتام المدينة المنورة وأوقف عليها داراً له واستمر الصرف عليها من غلة ذلك الوقف بالإضافة إلى المساعدات التي كانت تصله من الهند إلى أيتام الدار ، حتى أنشئت وزارة العمل والشئون الاجتماعية وتولت الإشراف الكامل عليها ، ومازال مبناها الحالي وقفاً على أيتام المدينة المنورة ،وهذا مثبت في صك شرعي صادر من محكمة المدينة المنورة عام (١٣٥٦هـ) (٨) .

وخلاصة القول فيما يذكر من جوانب عملية آنفة تجاه رعاية الأيتام والعناية بهم توفير حياة كريمة لهم مثل باقي أفراد المجتمع يدل على أن الوقف كان له دور كبير في سد ثغرة اجتماعية كان سيعانى منها المجتمع المسلم في حالة إهمالها ،وهذا يؤكد أهمية الوقف في علاج بعض المشكلات الاجتماعية في المجتمع .

أ) في مجال رعاية الغرباء والعجزة :

لقد أدت الأوقاف دوراً مهماً في تحقيق الرعاية الاجتماعية الشاملة للغرباء والعجزة بشكل عام ، فما من مدرسة ينشئها الواقفون إلا ويوضع بجوارها بيت خاص للطلاب المغتربين ويجري عليهم فيها ما يحتاجون من غذاء . لذا لا عجب أن نجد تلك الحركة البشرية المتواصلة بين المدن والقرى في العالم الإسلامي ، طلباً للعلم في المدارس الوقفي ، فلا يوجد ما يعوق طلب العلم فالطرق قد أمنت بالأسئلة الوقفية ، والمدارس قد تم تجهيزيها بالغرف الخاصة بالغرباء ، وقد تزايدت تلك الظاهرة بشكل ملفت للنظر ،وقد أبدى ابن جبير إعجابه الشديد لما لمسه في بلاده المشرق الإسلامي من عناية بالغرباي ، فقال : (إن الوافد من الأقطار النائية يجد مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه ، واتسع عناية السلطان بالغرباء حتى أمر بتعيين حماما يستحمون فيها ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ولقد عين لهم السلطان خبزتين لكل إنسان في كل يوم وزكاة العيد لهم (٩) .وحسبك من هذا أن صلاح الدين قد خصص للغرباء من المغاربة جامع أب نطولون في مصر يسكنونه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر.

أما الربد وهي الأماكن التي تم إعدادها على الثغور للمجاهدين وصد هجمات الأعداء فقد تحولت مع الوقت هي والخناقات والتكايا والزوايا إلى أماكن للمتفرغين للعبادة من الجنسين ، فكان ينقطع فيها من يرغب التفرغ للعبادة ، ويجري عليها الواقفون الجرايات اليومية من غذاء وكساء، وهذا النوع من الأوقاف ينتشر بشكل كبير جداً في مدن وقرى العالم الإسلامي فمن يطلع على رحلة ابن بطوطة فيسجد العجب فما مر على قرية أو مدينة في البلدان الإسلامية التي زارها في رحلته إلا ويذكر مثل هذه الأربطة والزوايا بل كان من المستفيدين منها وسكن في بعضها ، ومع تطور الوقت تحولت بعض هذه الأربطة إلى ملاجئ مستديمة للذين يستحقون الرعاية ، وخاصة أصحاب العاهات وكبار السن والعميان والمطلقات وهذا التحول أدى بها إلى تحقيق رسالة اجتماعية ، ذلك أنها غدت مأوى للغرباء والعجزة وضعفاء المجتمع ،وجميع هذه المنشآت وجدت في نظام الوقف أكبر رافداً مكنها من مواصلة رسالتها .

ولازالت بعض هذه الأربطة تؤدى هذه الرسالة في العالم الإسلامي ويمكن رؤية العديد منها في كل من مدينة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث أصبحت مأوى للعديد من العجزة ،والمرضة ، والمعاقين ، وكبار السن وأحيانا العاطلين، وهذا ما أظهرته الدراسة التي قامت بها وزارة العمل والشئون الاجتماعية عام ١٤١٩هـ عن الأربطة في منطقة مكة المكرمة (مكة المكرمة ،جدة الطائف) ومنطقة المدينة المنورة .

ج) في رعاية الفقراء والمعدمين :

لاشك أن الأوقاف باعتبارها صدقة جارية قد قامت بدور كبير في مجال الرعاية الاجتماعية والضمان الاجتماعي في المجتمع المسلم ، فمن اللافت للنظر أن وثائق الأوقاف في غالبها تنص على مساعدة الفقراء والمحتاجين ، بل إن هذا يعد ركناً أساسياً في الوقف ، إلا أن المساعدات تكون بأشكال وأنواع مختلفة ، فمن ذلك توزيع المساعدات النقدية ، وأحياناً أخرى العينية ومما يذكر في هذا المجال أن السلطان الظاهر بيبرس أوقف وقفاً لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين ..وتجاوز الأمر إلى رعاية أولئك الفقراء حتى بعد وفاتهم ويكون ذلك بتحمل تكاليف تغسيلهم وتكفينهم ودفنهم ،ومن أشهر هذه الأوقاف (وقف الطرحاء) الذي جعله الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم (١٠) .

ومن وجوه البر التي اهتم الواقفون بالصرف عليها من ريع أوقافهم كسوة العرايا والمقلين وستر عورات الضعفاء ، والعاجزين وإرضاع الأطفال عند فقد أمهاتهم ووفاء دين المدينين ، وفكاك المسجونين المعسرين وفك أسرى المسلمين العاجزين وتجهيز من لم يؤد الحج من الفقراء لقاء فرضه ، ومداواة - المرضى غير المقتدرين وكان مما حدده السلطان المملوكي الأشراف شعبان لمصاريف أوقافه أن جعل منها نفقات خيرية سنوية تشمل تأمين الإبر والخيوط للفقراء بمكة المكرمة (١١) .

كما كان هناك أوقاف خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء والكساء وكل ما يحتاجونه لحين خروج عائلهم من السجن، كما وجد مؤسسات وقفية لتجهيز البنات إلى أزواجهن ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات تجهيزهم (١٢).

ثالثاً : الدور الاجتماعي للأوقاف :

لا تخلو أي دراسة عن الوقف من ذكر الآثار المترتبة عليه ، إلا أن التركيز غالباً ما يكون على الأدوار الاقتصادية أو الأدوار التعليمية للأوقاف رغم أن الدور الاجتماعي للأوقاف لا يقل عن الأدوار الاقتصادية والثقافية والصحية إن لم يفارقها ولا يكاد يوجد جانب من جوانب الحياة في المجتمع المسلم إلا ولها صلة بنظام الأوقاف من قريب أو بعيد ، بل يرى أحد الباحثين أن الأوقاف عمل اجتماعي دوافعه في أكثر الأحيان اجتماعية وأهدافه دائماً اجتماعية ، فالأوقاف الإسلامية في الأصل عمل اجتماعي ، ويمكن أن نورد بعض الآثار الاجتماعية المترتبة على الوقف ، أو التي كان للوقف دور في تعزيزها في حياة المجتمع وترسيخها على مدى القرون الماضية ، فلقد ساعد الوقف على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع وذلك نوع من المساواة بين أفراده فقد تمكن الفقير من الحصول على حقه من المتطلبات الأساسية من الحياة من خلال نظام الوقف بل إن بعض الأوقاف كان يخصص ريعها للفقراء ويشير بعض الباحثين إلى أن (الآلاف الكبيرة من المجتمع من العلماء المبرزين في مختلف التخصصات كانوا من فئات اجتماعية واقتصادية رقيقة الحال) (١٣) .

كما تمكن الوقف بما يمتلكه من مرونة من بسط مبدأ التضامن الاجتماعي وشيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عادة في

المجتمعات التي تسود فيها روح الأنانية المادية وينتج عنها الصراعات الطبقية بين المستويات الاجتماعية المختلفة ، وهناك من يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد حمت مجتمعها من امتداد ثورة العمال التي برزت مع الثورة البلشفية في روسيا على المجتمع العمالي في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال التوسع في فتح أبواب العمل الخيري وتشجيع الشركات والأثرياء بإعفاءات كبيرة لمن يقدم منهم على الأعمال الخيرية فزادت المؤسسات الخيرية وتضاعفت الهبات حتى بلغت مئات الملايين في وقت مبكر من هذا القرن (١٤) .

كما أن في الوقف توزيعاً عادلاً في الثروات وعدم حبسها بأيد محدودة مما يجعلها أكثر تداولاً بين الناس لأن الواقف عندما يوصي بتوزيع غلة موقوفاته على جهة من الجهات ،يعني توزيع المال على الجهة المستفيدة وعدم استئثار المالك به .

إن المتأمل لنظام الوقف في الإسلام ليرى بوضوح كيف عمل ذلك النظام المتكامل على تعزيز روح الانتماء بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد تحقيقاً لحديث الرسول ﷺ (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (رواه البخاري) .

وهذا الشعور بالانتماء يشمل الطرفين الواقف والمستفيد من الوقف فالواقف استشعر دوره المناط به في المجتمع وخصص جزءاً من ماله لسد حاجة من حاجات المجتمع والمستفيد من الوقف يستشعر بعين التقدير مدى حاجته للانتماء لجسد المجتمع الواحد الذي قام أثرياؤه بإسعاد فقرائه من خلال نظام الوقف .

إن الدارس للأثر الاجتماعي لابد أن تستوقفه نوعية الطبقة الاجتماعية التي استفادت بشكل كبير من الوقف وكيف استطاع تغييرها وتحقيق ما يسمى بظاهرة (الحراك الاجتماعي) في بنية المجتمع . والحراك الاجتماعي يقصد به : انتقال الأفراد من مركز إلى آخر في نفس الطبقة .وقد يكون رأسياً وهو انتقال الأفراد من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية أعلى ولقدمكن التعليم الوقفي والرعاية الاجتماعية والوقفية من تغير طبقات المستفيدين منه أفقياً رأسياً وفق مفهوم الحراك الاجتماعي ، فساعد نظام الوقف على تحسين المستويات الاقتصادية ، والعلمية والثقافية لكثير من أفراد المجتمع ، فالتعليم الجيد الذي قد يحمله شخص موهوب قد ينقله ليس لأن يتسلم مرتبة الإفتاء والقضاء والقضاء

فحسب ، بل يتمرس في العمل الإداري وتيسير أمور الدولة أو في أي مهنة متخصصة كالطب أو الإدارة أو غيرها والتي قد لا تتاح له لولا أن أموالا موقوفة قد سهلت له سبيل التعليم .
وإضافة لكل ما سبق فقد كان لنظام الوقف ومصارف غلالها الدور الكبير في تعزيز الجانب الأخلاقي والسلوكي في المجتمع من خلال التضييق على منابع الانحراف ، فقد كانت توجد العديد من الأوقاف لرعاية التضييق على منابع هجرهن أزواجهن حتى يتزوجن ويرجعن إلى أزواجهن صيانة لهم وللمجتمع ويكون ذلك بإيداعهم الربط ، حيث ينقطعن عن الناس ، وفيها من شدة الضبط وغاية الاحتراز وتؤدب من خرجت عن الطريق بما تراه ، وتجرى عليهم من الأوقاف ، فتنقطع حاجتهن التي قد تلجئن إلى سلوك دروب الانحراف بسبب الحاجة .
كما وجدت أوقاف خاصة لتخليص السجناء ووفاء ديونهم، وفكاك أسرى المسلمين، كما وجدت أوقاف خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء والكساء وما يحتاجونه من أمور أخرى. وعلاوة على الصرف على المساجين وعوائلهم من أموال الوقف كانت هناك بعض الأوقاف مخصصة للصرف على الفقهاء بشرط أن يؤموا المساجين أوقات صلواتهم وأن يدرسوا ويفقهوا السجناء ويقودوهم في حياتهم العملية ليخرج هؤلاء من السجن وقد اتقنوا علماً من العلوم أو حرفة من الحرف ، وهذا ما يسمى في الوقت الحاضر بالرعاية اللاحقة وهي الرعاية التي تقدم للسجين وأسرته في أثناء سجنه ، حتى لا يعود إلى الانحراف مرة أخرى ، وحتى لا ينحرف أحد أفراد أسرته بسبب غيبته عنهم وعدم وجود الولي والرقيب عليهم .
وجماع القول في هذا المبحث أن للوقف دوراً اجتماعيا كبيرا ومهما ، ورغم عدم وضوحه في بعض الأحيان وذلك يعود إلى تأخر ظهور الآثار الاجتماعية في حياة المجتمعات واحتياجها إلى سنوات وأحيانا إلى عقود طويلة من السنين والأعوام لتتضح للعيان ،وهذه الآثار في جملتها آثار إيجابية نافعة ، وهذا ما يؤكد ضرورة العودة بالوقف إلى دوره الفعال في المجتمعات المسلمة لجني ثماره الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل متوازن ومتكامل .
رابعاً :كيف يعاد دور الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية "

لعل فيما ذكر في المباحث السابقة ما يوضح الأثر الكبير المتوقع من الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية وليس ذلك بغريب ، فإن المتأمل في تاريخ الأمة ليجزم وبقوة أن الرعاية الاجتماعية في المجتمع المسلم طوال القرون الماضية لم توجد إلا عن طريق الوقف .

وفي عصرنا الحالي ، ورغم وجود مفهوم الدولة القائم بشكله المعاصر ، بكثير من الخدمات الاجتماعية التي كانت تقدم بها الأوقاف سابقاً ، إلا أن الظروف المالية للدول توجب إعطاء الوقف دوره الحقيقي في المساهم ة في جوانب الرعاية الاجتماعية وهذه المشاركة من قبل أثرياء الأمة لا تعني تقليل الأعباء عن الحكومات بقدر ما تؤدي إلى ترسيخ قيم الانتماء في النفوس للمجتمع المسلم الكلي وجعل أفراد الأم أكثر استعدادا للمشاركة الفعالة في تبنى هموم المجتمع والتخفيف من الاتكالية الشائعة لدى الناس اعتمادا على جهود الدولة ، والدولة فقط.

وهذا الأمر ليس بدعاً من القول ، فلقد كانت الأوقاف على مر التاريخ إحدى الروافد الأساسية لبيت المال يصرف ريعه على جهات البر المختلفة من مؤسسات دينية وصحية إلى جانب كثير من المنشآت التعليمية والصحية والمرافق العامة الأخرى . ومما يدعو إلى الأخذ بهذا الاتجاه هو النتائج الإيجابية المتوقعة من اضطلاع الوقف بدوره في مجال الرعاية الاجتماعية ، ذلك أن الأوقاف وإدارتها يمكنها أن تملك من المرونة الإدارية والاجتماعية مالا تملكه الإجراءات الرسمية وهذه المرونة هي ما تحتاجه برامج الرعاية الاجتماعية بشكل عام بعيداً عن الجمود الروتيني والأنظمة المقيدة .

وهذا لا يعني أن عدم الاستفادة من الوقف في الوقت الحالي عائد إلى كون الأوقاف تسيرها الأنظمة الروتينية المقيدة في كثير من الأحيان، بل إن معوقات الاستفادة من الأوقاف في مجال الرعاية الاجتماعية في العصر الحالي قد يكون من الواقفين أنفسهم وذلك يجعل مصارف الوقف في أشياء قد تكون الحاجة الحقيقية للمجتمع قد تجاوزتها ، ومن هذا كله فإن الحاجة ماسة لتكثيف الدعوة نحو إعادة الوقف لموقعه الطبيعي في نهضة الأمة الإسلامية بشكل عام ، والمملكة العربية السعودية بشكل خاص فهي كيان مهم في العالم الإسلامي ، فما يتم على الأوقاف في المملكة عد مثالاً يحتذى به لاعتبارات عدة لا تخفي.

وفيما يلي طرح لبعض المقترحات عن كيفية إرجاع دور الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية واقتراحات أخرى تتعلق بوضع الأوقاف في المملكة ، وهي مقترحات عامة أجزم أن في مناقشتها إثراء لها للوصول إلى ما يطمح إليه الجميع بإذن الله فمن ذلك:

١. تنفيذ حملة إرشاد وتوعية إلى إبراز قيمة الصدقات وأجر الإنفاق في سبيل الله ، وبخاصة ما كان منها صدقة جارية (الوقف) للإقبال على إحياء هذا النظام وجعله يؤدي دوره .
٢. استمرار عقد الندوات العلمية المتخصصة في الأوقاف وطرحها بشكل موسع بحيث تكون المشاركات من دول العالم الإسلامي وعدم قصرها على المستوى المحلي.
٣. إبراز دور الوقف الاجتماعي في النهضة الإسلامية وطرحها عبر القنوات الإعلامية ، مع التركيز على ضرورة التنوع في مصارف غلال الأوقاف وفق حاجات المجتمع التي تسد الثغرات الاجتماعية .
٤. طباعة أبحاث الندوات التي أقيمت عن الوقف في كتب وطرحها إلى الأسواق للبيع وعدم الاقتصار على التوزيع المجاني لها .
٥. تحويل جميع عمليات الوقف من مبادرات فردية إلى عمل مؤسسي منظم في خلال إنشاء صناديق وقفية متخصصة يندرج ضمنها الأوقاف القائمة حالياً ،وما يستجد من أوقاف في إطار واحد تحدده شروط الواقفين ويؤكد هذا أن مؤسسات الرعاية الاجتماعية لا يمكن أن تنهض برسالتها إلا في ظل موارد مالية ضخمة ودائمة باستمرار ، وهذا يتحقق بجلاء في نظام الوقف والتجربة التاريخية السابقة أثبتت ذلك .

وتخصص هذه الصناديق المقترحة للقيام بالأنشطة الشرعية ، والثقافية والصحية بالإضافة إلى الأنشطة الاجتماعية من خلال إنفاق ريع الأموال الوقفية بما يحقق أغراض الواقفين ، وتتكون موارد كل صندوق من ريع الأموال والأعيان الوقفية ويقوم على إدارة كل صندوق لجنة متخصصة ، وتساعد مثل هذه الصناديق على توفر رأس

مال كبير من مجموع الأوقاف المتناثرة ، مما يعطي فرصة أكثر لتنمية رؤوس الأموال وإنشاء مشاريع تحقق تنمية واسعة .

ويمكن لتلك الصناديق دعم المشاريع الخيرية التي تتوافق مع شروط الواقفين بحيث تقدم أية جهة بمشروع متكامل من حيث الدراسة والتنفيذ ونوعية ومقدار المستفيدين منه ، ليقوم الصندوق بدارسة المشروع وتحديد مدى إمكانية دعمه وفق معايير واضحة ، بذلك تضمن تحقيق أكثر فائدة من الأوقاف في المجالات المختلفة ومنها جهات الرعاية الاجتماعية.

٦. من المعلوم أن الأربطة الخيرية هي الجانب الظاهر من دور الوقف في مجالات مختلفة ومنها الرعاية الاجتماعية في المملكة حيث تشتهر منطقة مكة المكرمة ومنطقة المدينة المنورة بكثرة الأربطة الخيرية بها ، إلا أنه أصابها ما أصاب غيرها من الأوقاف نتيجة عوامل عد ، فلقد أظهرت دراسة لوزارة العمل والشئون الاجتماعية العديد من النتائج التي تؤكد تناقص دور الأربطة ، بل وعدم تحقيق شروط العديد ممن أوقفوها ،وخراب العديد منها ، كما ظهر لبعضها آثار سلبية من الجوانب الأمنية والأخلاقية في ظل وضعها الحالي (١٥) . وهذا الأمر يتطلب إعادة النظر في وضعها ،فقد تحتاج إلى دراسة شرعية خاصة بها للنظر في كيفية تحقيق الاستفادة منها بشكل يتوافق مع شروط الواقفين ويحقق البعد الاجتماعي والهدف الخيري الذي قصده الواقف منها .

ويمكن تحقيق ذلك بإسناد هذه الأوقاف في نظرتها إلى بعض الجمعيات الخيرية لتتولى متابعتها وصرف ريعها وفق شروط الواقف ، ووضع شروط لتسكين المستفيدين تتفق مع شروط الواقف وعدم تركها مجالاً لتشجيع البطالة بين ضعاف النفوس ممن ألفوا الدعة والراحة والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المراجع:

١) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار إحياء العلوم ، ١٤١٧ هـ

٢) ابن جبير ، رحلة جبير ، دار صادر ن بيروت ، بدون تاريخ

٣) ابن قدامه، المغنى، مكتبة الرياض الحديثة، ١٤٠١هـ

٤) جمال برزنجي ، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع ، ضمن أبحاث ندوة (نحو دور تنموي للوقف) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ١٩٩٣م.

٥) راشد القحطاني، أوقاف السلطان الأشراف شعبان على الحرمين ، الرياض ، ١٤١٤هـ

٦) سعيد عاشور ،المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية في (موسوعة الحضارة العربية الإسلامية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨٧م .

٧) شوقي دنيا ، أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة ن مجلة البحوث الفقهية المعاصرة ، الرياض ١٤١٥هـ

٨) عبد الله بن سليمان المنيع ،الوقف من منظور فقهي ، ضمن أبحاث ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية – المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ .

٩) عبد الله بن ناصر السدحان ، رعاية الأيتام في المملكة العربية السعودية ، الأمانة العامة للاحتفالات بمرور مائة عام على تأسيس المملكة ، الرياض ، ١٤١٩هـ .

١٠) وزارة العمل والشئون الاجتماعية ،تقرير عن الأربطة في مكة المكرمة والمدينة المنورة .